

## الرؤية السردية في رواية الرحلة

بين "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ، و"هاتف المغيب" لجمال الغيطاني

## Narrative Vision in the Novel "The Journey"

Between "The Journey of Ibn Fattouma" by Naguib Mahfouz and "The Unseen Telephone" by Gamal al-Ghitani

1 أبو بكر مرزوق\*

جامعة عمار ثليجي الأغواط، (الجزائر)، merzougoubakeur@yahoo.fr

مخبر علوم اللسان

تاريخ الارسال 2025-07-24 تاريخ القبول 2025-08-12 تاريخ النشر 2025-09-16

## ملخص:

ترتبط الرحلة بالسفر، حيث تتحقق - من خلاله - نظرة الرحالة تجاه عوالم يكتشفها لأول مرة، فيحاول التماهي معها، أو بلورة موقف يحمل (رؤية) تتجاوز "فعل الرحلة"، وما يقتضيه من مواقف وعواطف تستدعيها اللحظة المعيشة، إلى ممارسة "أدب الرحلة"، بما يحمله من تصورات وأفكار تتجاوز وجهة النظر الخاصة إلى رؤية شديدة التعبير؛ كون سارد الرحلة هو الراوي والشخصية معا. ولم يخل أدبنا من تجارب سردية ناضجة، امتزجت فيها الرحلة بالسير، مرة، وبالرواية، مرة، فكان من نتاجها: (الرحلة السير - ذاتية)، و(رواية الرحلة)، التي تحاول مقارنتنا استكشاف خصائصها هذه الأخيرة، عبر أنموذجين سرديين مصريين هما: رواية نجيب محفوظ "رحلة ابن فطومة"، ورواية جمال الغيطاني "هاتف المغيب".

الكلمات المفتاحية: الرؤية السردية؛ رواية الرحلة؛ نجيب محفوظ؛ رحلة ابن فطومة؛ جمال الغيطاني؛ هاتف المغيب.

## Abstract:

The journey is linked to travel, through which the traveler's vision of worlds he discovers for the first time is realized. He tries to identify with them, and detail a position that carries a (vision) that goes beyond the act of travel and what it requires in terms of positions and emotions that the lived moment calls for, to the practice of travel literature, with what it carries of perceptions and ideas that go beyond the private point of view to a highly focused vision; the narrator of the journey is both the narrator and the character.

Our literature has not been devoid of mature narrative experiments that blended the journey with biography, at times, and with the novel, at other times. These experiences have produced the autobiographical journey and the travel novel, the characteristics of which our approach attempts to explore through two narrative models: Naguib Mahfouz's novel "Ibn Fattouma's Journey" and Gamal al-Ghitani's novel "The sound of sunset"

**Keywords:** narrative vision; travel novel; Naguib Mahfouz; Ibn Fattouma's Journey; Gamal al-Ghitani; The sound of sunset

\* المؤلف المرسل: أبو بكر مرزوق

## 1. مقدمة:

الرحلة جنس أدبي ثري - عادة -، يركز على وصف "السفر"، وما يقع عليه البصر من مشاهدات، وما يسجل - في أثنائها - من أخبار تحمل الطريف المدهش، والغريب المعجب، تذكي في الذهن والنفس جدوى مغامرة الترحال انتفاعا واستمتاعا، فيشبع به النهم المعرفي، والفضول البشري. يضم الجنس الرحلي - باعتبار موضوعته الأم - نوعين من التسجيل:

- **تسجيل واقعي:** يحدث ضمن مكان وزمان معينين، حيث ينتقل فيها الرحالة من مكان جغرافي محدد إلى مكان جغرافي آخر، وهي سمة الرحلات العامة التي عرفها العرب، ومارسوها في حياتهم، حال الرحلات الحجازية، والرحلات العلمية؛

- **تسجيل تخييلي:** يقتضيه الفضول الفني (الأدبي)، وفيها، ينتقل الرحالة عبر أمكنة متخيّلة، كالرحلة إلى العالم الآخر، على شاكلة: "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"الكوميديا الإلهية" لدانتي.

ولقد ارتبطت الرحلة - في أول أمرها - بمغامرات علمية استكشافية عززت هويتها الأجنبية المستقلة، مثل علم الأثنوغرافيا\*، الذي ازدهر مع علم الانثروبولوجيا\*\*، فشاع عند الرحالة العرب القدامى شيوعا متميّا، حيث تحدّدت أصوله المنهجية عند الرحالة المؤرخين، أمثال: المسعودي في "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، والرحالة الجغرافيين، أمثال: المقدسي، في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، والرحالة العلماء، أمثال: البيروني في كتابه: "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، والرحالة الطوّافة، أمثال: ابن بطوطة في كتابه: "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

ولما كان ارتباط فعل الرحلة بالفضاء الزمكاني - سواء أكان هذا الفضاء واقعيًا، أم متخيّلًا - فقد تأسس سرُّ الرحلة على تأريخ المشاهدات والوقائع، وعلى وصف فضاء جغرافي المكان، ومن خلاهما، تجلّت وظيفة منجز الرحلة في صورتين:

- **صورة الفاعل:** الذي يضطلع بالتنقل الفيزيائي المادي، المؤسّس على تجربة فردية مستقلة، جرت في فضاء مكاني محدد، وفي حيز زمني معيّن، يروم من خلالها تحقيق مقاصد ذاتية مثل (انتفاع واستمتاع)؛

- **صورة المتفاعل:** الذي يضطلع بالفعل التسجيلي الفني، ويتحقّق في صورتين:

- **أيّ أو متزامن:** يعتمد على التسجيل الفوري، حال: المقيّدات، والمدوّنات، المؤثّقات، والمقلّصات، والملخصات، والمفكرات، والمذكرات، التي تصبّ في نمط "اليوميّات"، وهو المصطلح الجامع لهذه

المؤرخات، التي نعي بها: "سلسلة آثار من حياة كاتبها، يراكمها يوما بعد يوم، ويحفظها خوفا من النسيان ومرور الزمن"<sup>1</sup>

- لاحق مستدرِك: يتأسس على إنتاج نص (مؤلف) لاحق، هو ثمرة هذه الرحلة، وذلك بالكتابة أو الاستكتاب، حيث يجسد النص المكتوب خطابا ظاهرا أو ضامرا، يعكس رؤية الرحلة، ومثال هذه الحالة التسجيلية الاستكتابية "رحلة ابن بطوطة"، التي جمعت بين الإملاء التدوين<sup>2</sup>.

إنّ المقارب للأدب الرحلي سيركز على عملية التأليف القصدي لدى الرحّالة، التي تسمح بمساءلة منجزه المسرود، بحثا عما من شأنه أن يحقق (أدبية) نص الرحلة، بعدما بيّنت نيّة كتابة رحلة نموذجيّة (حقيقية كانت أو تخيلية)، تتحقّق فيها (شعرية) الكتابة الرحليّة، من خلال: وجهة الرؤية السردية التي تعكسها (الذات / الرحّالة) على (الموضوع / الرحلة)، وتكرسها البنية (الزمكانية)، قصد تبئير قيمة العمل الرحلي (نصا وخطابا)، في كشف أو استكشاف حملته التاريخية، وأنساقه الثقافية، حيث يعبر الزمان عن تاريخية الإنسان، ويعبر المكان عن جغرافية الفضاء، وتُستلهم الأبعاد الثقافية من خلال (الرؤية السردية) للرحّالة، عبر مقاصده التعارفية (الاستكشافية والتواصلية)، والمعرفية (التربوية والتعليمية).

ومن هنا، ندرك - استتباعا - أنّ دراسة أدب الرحلة، لا يرتبط بفعل السفر، والتنقل في الحيز الجغرافي الفيزيائي المادي، بقدر ما يرتبط بالبعد الفني والجمالي للرحلة؛ ذلك أنّ موضوع الرحلة (المباشر)، يحيل إلى جهة (المحتوى)، فيستعرض جملة المشاهدات والوقائع، ويقف على حشيتها وتفصيلها ضمن أفضية زمكانية بالغة الخصوصية، وإرضاء مقاصد نفعية، وأهداف قيمة، ترتبط بالجانب الموضوعاتي، وتتعلّق بكلّ ما هو (جغرافي - تاريخي)، أو (اجتماعي - انثروبولوجي)، بينما يحيل موضوعها (غير المباشر) إلى جهة (الشكل)، وصورة تحقيقه فنيا وجماليًا، عبر:

**أولا - شعرية الرحلة:** من حيث هي: قوانين كليّة تحكم بنية الرحلة النسقية. فتطرح إشكالات في (واقعيتها أو خياليتها)، أو (علميته أو أدبيتها)، أو (تقريريتها أو فنّيتها)..  
**ثانيا - أدبية الرحلة:** من حيث هي مقومات فنية تحكم الخطاب الرحلي في جانبه (الإبلاغي،

والبلاغي)، أو في جانبه (التداولي والدلالي)؛ القائمين على سلطة الأنساق الثقافية، في بعدها (الأنثولوجي)\*\*؛ بتعريف (الآخر) داخل مرجعياته الثقافية وعاداته، وقيمه، وفي بعدها (الميثولوجي)؛ بتعريف ما يعرضه (الآخر) عن نفسها، في مرحلة من مراحل تطوّر الثقافي، من أساطير وميثولوجيات يصطنعها في تراثه، فيضيفها إلى معتقداتها الصحيحة قصد أضفاء طابع المصادقية.

## 2. البنية السردية في الرحلة:

إنّ القبض على رحلة ذات أبعاد فنية واضحة المعالم، قد يحدّد طبيعة الأدوات الإجرائية التي تعتمد في مقاربتها. وهي - باتّكائها على البعد الفني والجمالي - تتطلّب مقومات سردية تتّضح عناصرها في:

## 1.2 الرؤية السردية:

تمثّل "الرؤية" في الرحلة انطباع الرحّالة بُجَاه المكان الذي خصّه بالرحلة، وهو عنصر يقوم على أنماط من السرد، تتحدّد وظيفتها بحسب طبيعة السرد، المتفاوتين في حضورهم في المنجز الرحلي - نصا وخطابا -، فتتراوح بين: (سارد/ مؤلف)؛ كتب نص الرحلة أو أملاه، و(سارد/ راو)؛ سرد تفاصيل الرحلة وحكاها، و(سارد/ شخصية)؛ مثل المحرّك الأساس لموضوع الرحلة، ومدار الأقوال والأفعال في الحدث الرحلي.

## 2.2 الزمن الرحلي:

وهو عنصر يرتبط بمنهج الرحلة، وظروف ميلاد نصّه، وقد يرتبط بلحظة الكتابة، حيث يتفاعل الزمن الفني (السرد) مع الزمن الكرونولوجي (التاريخي)، الذي يحياها السارد أو يحيا فيه، أو يخضع إلى سلطته. غير أنّ الزمن في الرحلة يتوقّف على زمن الكتابة، وتاليا، يكون هذا النوع من الزمن الكتابي مرهونا بلحظتين:

- لحظة الكتابة العاجلة: حين ترافق لحظة الكتابة لحظة الرحلة، ومن ثم، فهي تعتمد على التسجيل المتزامن، والترجمة المباشرة للواقع المشاهد، وهذا النمط لا يكون ميسّرا دائما إلّا إذا عُضِدَ بتقنيات التسجيل الآني المباشر، حال الوسائل التواصلية (السمعية - البصرية)، المواكبة للتطور التكنولوجي، والطفرة المعلوماتية المعاصرة.

- لحظة الكتابة الآجلة: حين يَرِجى الرحّالة كتابة رحلته، وحينئذ، يكون الاكتفاء بالملاحظات الأولية، أو اعتماد أسلوب التسجيلات اليومية، التي يعيد كتابتها بعد التعديل والتقويم، والتنقيح والتشذيب أو يعتمد على ملكة الاسترجاع والتذكّر، وهي طريقة تسمح للرحّالة أن يحيا تجربة الكتابة من جديد، بعيدا عن عملية التسجيل الفوري، المرهونة بظرفية اللحظة.

## 3.2 الفضاء الزمكاني:

يعتبر "المكان" في الرحلة، حجرَ زاوية فضاءها؛ إذ لا يتردّد الرحّالة في وصف إحساسه به، دون الاكتفاء بالوصف الموضوعي المحايد - مثلما يفعل الجغرافي - ذلك أنّ الرحّالة يكتب "بالمكان"، من خلال الكتابة عنه؛

بحيث لا يكاد المكان ينفصل عن الذات الساردة، بل إنّ الذات ستصبح هي المكان ذاته، في حين يكتب الجغرافي "عن المكان"، بوصفه حيّزاً مستقلاً مستهدفاً، فيتناوله بموضوعية صارمة، ومعزولة - عادة - عن انطباعه الذاتي. وإذا كان الرحالة - جغرافياً - يستحضر في رحلته المدوّنة الجغرافية (المواقع، البلدان، البحار، الأراضي...)، فإنّه - في الوقت ذاته - يستحضر المدوّنة التاريخية (الأعلام، الأزمنة، تواريخ الأمم، سير الأفراد...)، معيداً صياغة كلّ ذلك في وصف تاريخي وجغرافي جديدين، دون أن تكون الرحلة نسخاً للتاريخ أو الجغرافيا أو إعادة إنتاج لهما.

ومن هنا، فقد حمل فضاء "المكان" في الرحلة هويّةً مزدوجةً، مسيرةً لتطوّر الإنسان عبر التاريخ، تحقّق التفاعل الزمكاني أو "الكرونوتوب"<sup>3</sup>، حيث لا يكون (انفعال) النفس بالزمان والمكان إلا صورة تعالقهما (المتفاعل)، وهو جوهر دلالة ملفوظ "الزمكان"، الذي قصده الناقد الروسي (ميخائيل باختين) في فكرته الحوارية. وبفضل هذه البنية السردية المرنة في الرحلة، سمحت هذه الآلية، المنفلتة من التقنين "الأجناسي"، أن تجعل من الرحلة سرداً حيّاً، مثيراً لوضعية تاريخية لا يرصدها إلا هذا النوع من السرد<sup>(4)</sup>.

## 4.2 الصورة الرحلية:

شاع عن الرحلة إنّها (أدب الصورة)، أو (نص الصورة السردية)؛ كون الصورة مغلّماً مهيمناً، يصل حدّ توغّل علم الصورة (الصورولوجيا) في تخصيص الرؤية الرحلية، بل تغوّله - في كثير من الأحيان - على تفصيلات المحتوى الرحلي، ومكوناته التواصلية، من خلال: (الانبهار الحضاري والثقافي - التأثير بمدينة الآخر - الانفعال والتفاعل - التشاؤف...).

أما على مستوى التشكيل الفني، فإنّ عملية عرض مشاهد الرحلة، واستعراض تفاصيلها، ستخضع إلى التسريد القائم على الوصف والتصوير، وكأنّ وظيفة الرحالة تفرض عليه أن "يسرد ليصف، ويصف ليسرد"؛ أي: إنّّه - إجرائياً - يقوم بالسرد مستعيناً بالوصف، أو أنّه يقوم بالوصف تحت غطاء السرد، وهذا الحضور السردى في جنس (الرحلة)، يجعل هذا الأدب قريباً التصالح مع جنس (الرواية)، ويسهل فعل التهجين معها. وإذا بدت "الرواية" جنساً أدبياً له قوانينه التي تميزه عن "الرحلة"؛ ابتداءً بالحبكة السردية، والشخصيات النامية مع الأحداث، فإنّ الرحلة (والرحلة الخيالية خاصة)، قد تقترب - كثيراً - من الفن الروائي في عناصر، مثل: الحكى، والوصف، والسرد، والتخييل.

- فبالنظر إلى الحكى في الرحلة، الذي يمثّل حجر الزاوية في الرواية، فإنّه يغدو مقوماً أساسياً في استعراض حياة الناس بطريقة أقرب إلى الواقع، إن لم نقل بطريقة مطابقة له، ومحاولة تقريب صورة المجتمع الذي انبثقت عنه، والفضاء المكاني الذي أطرها بما يمثّله من موجودات وأشياء.

- وأمّا الوصف في الرواية، والذي يمثّل حجر الزاوية في الرحلة، فإنّه يستحضر - بطريقة مباشرة أو قريباً من المباشرة - صورة الموصوف في استقلاله عن إطاره (الحديثي / الزمني).

- وأما السرد (وهو عنصر مشترك بين الرواية والرحلة)، فيعتمد الوصف في الرحلة، محوّلًا إياه إلى ضرب من التصوير التسجيلي الأمين، وقد يعتمد إلى التصوير التخيلي حين يكون الخطاب خياليًا؛ قد تلبّس شكل العجائبي (الفونتاستيكي)؛ كون الرحلة فنّا بصريًا بامتياز، مما يستدعي تقديم الموصوف تقديمًا تصويريًا مع حركة الرحلة في المكان فيقدم الوصف في:

- صورة "المشهد": الذي يقوم على إيقاف حركة السرد (والرحلة، في جوهرها، مجموعة مشاهد)، بحكم انتقالاته في أرجاء المكان،

- صورة "الوقفة": وهي أشبه بلحظة تأمل للموصوف، يراجع الرحّالة - في أثنائها - مواقفه تجاه المرئي.

- صورة "الخلاصة": حيث تعكسها بعض الصيغ الأسلوبية المكثفة للحظات السردية والوصفية، عبر الاختزال والتقليص..

- صورة "الحذف": حيث يجبر الرحالة - لسبب "إيديولوجي"، أو "شخصي" - على حذف ما يتعارض مع اعتقاده الديني أو السياسي، أو قناعاته الشخصية.

- صورة "البانوراما": التي تقوم على تقديم المكان من خلال سياقه العام، وصورته الكلية قبل عملية التعامل الجزئي، والفعل التفصيلي<sup>5</sup>.

## 5.2 اللغة الرحلية:

شكّلت الرحلة نصًا هجينًا - بالمعنى الباختييني - اجتمعت فيها أنواع من الاستعمالات الكلامية وفق ثنائيات فرضت نفسها على التشكيل اللغوي في الرحلة، منها: "الواقعي / الخيالي"، و"التقريري / الفني"، و"العلمي / الأدبي"، و"الشفاهي / الكتابي"، و"التعيني / الإيحائي".. كما تداخلت الكتابة الرحلية - من موقع أجناسي - مع الكتابة السيرية، بحضور ضمير "الأنا"؛ حينما تكون الرحلة بعضًا من سيرة الرحالة في الزمكان.

## 3. أدب الرحلة عند العرب:

لقد عرف العرب السفر، ومارسوا الترحال في شبه جزيرة العرب مع من جاؤهم من البلدان. ولعل رحلتي الشتاء والصيف، التي دأب العرب عليها في حياتهم التجارية، أبرز ملامح للحس الرحلي الذي أضفاه العرب على حياتهم، التي لا تعرف الاستقرار، منذ أن تفجّر سدّ مأرب، وتفرقت العرب في شمال الجزيرة شذر مذر، إلى جانب حياة الحلّ والترحال التي وازبت عليها القبائل العربية طلبًا للماء والكلأ والأمن.

ثم نشطت حركة الرحلة عند العرب مع مجيء الإسلام، الذي فتح الآفاق واسعة أمام المسلمين لنشر الدعوة المحمدية، وبث رسالتها في جميع الأمم والبلدان، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، دون أن تعترضهم أرض أو يقف في وجههم بحر.

وسوف تعدّ فترة الفتح الإسلام إلى القرن الرابع الهجري فترة ازدهار أدب الرحلة، حيث الاستقرار السياسي، والازدهار الحضاري، والانفتاح الثقافي. فنسمع برحلة **ابن فضلان** (ت. 309هـ)، وطابعها السفاري، ورحلة **المسعودي** (346هـ)، المشهورة بمروج الذهب، ذات الطابع التاريخي، ورحلة **المقدسي** (ت. 390هـ)، المشهورة بـ "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ذات الطابع الجغرافي..

في القرن الخامس، تشتهر رحلة **البيروني** (ت. 440 هـ)، المشهورة بـ "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، ورحلة **ابن بطالان** (ت. 441 هـ)، وقد حملتا طابع علميا.

ومع القرن السادس الهجري، وبعد تفكك دولة الإسلام إلى ممالك ودويلات - مشرقا ومغربا - تنتكس الرحلة على أثر ذلك، فلم نعد نسمع من الرحلات القيمة المثيرة إلا قليلا، يأتي على رأسها شهرة: رحلة **الإدريسي** (ت. 560هـ)، المشهورة بـ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وهي ذات طابع جغرافي، ورحلة **أبي حامد الغرناطي** (ت. 565هـ)، المعروفة بـ "المعرب عن عجائب المغرب"، وكأنّه أراد أن يعرف المشاركة أقاليم الغرب الإسلامي، كما نجد رحلة **ابن جبير** (ت. 626هـ)، المعروفة بـ "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، بطابعها الديني الاستكشافي.

ولعلّ ذكر هذه الشخصيات المغربية في مجال أدب الرحلة تنويه لدور الرحلات المغربية نحو المشرق، طلبا للعلم والمعرفة، أو أداء لشعيرة الحج، وما يرافقها من استكشاف الأندلسيين والمغاربة للفضاء المشرقي، وما ينجم عنها من تبادل ثقافي ثري، بعدما كانت الرحلات العربية - في أكثرها - حكرا على رحلات المشاركة، وبعض المغاربة نحو فضاءات أوربية، وبعض الرحلات البحرية ذات الصبغة التجارية في المحيط الهندي.

وسوف نذكر من أعلام الرحلة في القرن السابع: **ابن اللباد البغدادي** (ت. 629هـ)، صاحب: "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"، وهي من نوع الرحلات العلمية المنزهة عن الخرافة والأسطورة، و**ياقوت الحموي** (ت. 626هـ)، صاحب "معجم البلدان"، وهو كتاب جغرافي واثروبولوجي بامتياز، و**ابن سعيد الأندلسي** (ت. 685هـ)، صاحب كتابي "المغرب في حلى المغرب"، و"المشرق في حلى المشرق"، و**محمد العبدري** (ت. 688هـ)، صاحب "الرحلة المغربية".

أما رحالة القرن الثامن، فنذكر منهم: **إسماعيل أبا الفدا** (ت. 732هـ)، صاحب كتابي "المختصر في تاريخ البشر"، و"تقويم البلدان"، و**محمد بن أحمد التجاني** (ت. 718هـ)، صاحب "تقييد الرحلة"، و**ابن بطوطة** (ت. 776هـ) صاحب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" و**عبد الرحمن ابن خلدون** (ت. 808هـ)، صاحب "رحلة ابن خلدون"، المشهورة بـ "التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا"<sup>6</sup>.

ولا يخلو أدبنا الحديث والمعاصر من تجارب رُحليّة ناضجة، سواء وردت في صورتها المباشر (رحلة حقيقية)، مثل: الرحلات السفارية أو العلمية، أو رحلة غير مباشرة؛ التي تلبّست الأدب بشكلها (الفني الأدبي)، حين تتماهى مع الرواية، أو السيرة، أو بشكلها (الرؤيوي الرمزي)، حين تنطلق من بعد فلسفي (تأملّي)، أو خيالي (عجائي).. وأبرز أشكاله (رواية الرحلة).

ولعل نجيب محفوظ وجمال الغيطاني كانا من أشهر الروائيين المعاصرين اصطناعا لهذا النوع السردى التأملّي، واقتحام هذا العالم، الذي وجداه في أدب الرحلة، لتحديد جوهر الوجود، وطرح سؤال الذات والآخر (الآخر الإنسان، والآخر المكان)، بحيث ارتقيا فيها من خصوصيات الرحلة والسفر إلى جنس منفتح على شتى صور التواصل الإنساني.

#### 4. في شعرية "رواية الرحلة":

توسّلت الرواية العربية، منذ القرن التاسع عشر، فن التاريخ، في محاولة لاستقراء حوادثه ووقائعه، واستلهاهم صور الخلاص من التدهور العام الذي يشهده المجتمع العربي، وذلك بالبحث عن مواطن الضعف والتأخر، واستكشاف عناصر النهوض وأسباب التحرّر في أدب الآخر (الأوروبي)، خاصة أدبه الروائي. غير أنّ الرواية العربية، قد حاولت - في الجهة المقابلة، وفي مرحلة لاحقة - توسل "فن الرحلة"، من خلال التقاط مشاهدات وتسجيلات حيّة من المجتمعات الأخرى، ومقابلتها بصور المجتمع العربي، تعرض - من خلالها - مستلهمات عرضاً فنيّاً، فتضافرت الرواية، والرحلة، لأجل إيقاظ المجتمع، وتحريكه.

استطاعت "الرواية" أن تستوعب كلّ المظاهر الرحلية، متفادية السقوط في إكراهات الرحلة النمطية، التي تستقرّ في: تسجيل الغريب والمدهش من المشاهدات، بحيث إنّها - في مضمونها - توجّهت إلى الدخول في حوار مع الحضارات - قديمها وحديثها -، بينما يستدعي الوقوف - في شكلها - على العناصر المحقّقة لشعريتها، من حيث هي قوانين كليّة تحكم بنية الرحلة.

وكان لتوافر التراث على مكونات أدب "الرحلة" حافزاً حمل الروائيين إلى تأصيل الرواية العربية، وتوظيف هذا النوع النثري توظيفا واعياً، على أساس أنّ الرحلة: جنس يحمل شعريّة متفتّحة، ومنفتحة، وأنّ أهمّ مرتكزاتها الرؤيوية هو عنصر "الحوارية"؛ المؤطر لمختلف أنساقها الخطابية المشكّلة لبنيتها السردية، ومن ثمّ، فهي ملتقى لتعدّد الخطابات. وبفضل هذه البنية المرنة، القادرة على استيعاب مجال أوسع من المواقف والعواطف الإنسانية، والشهادات البشرية الحيّة، سمحت هذه الآلية، المنفلتة من التقنين الأجناسي، بأن تجعل منها سرداً حياً ومثيراً لوضعية تاريخية، وإنسانية.

لقد أُلّف القارئ العربي، في تلقّيه لأدب رحلات الغرب، أن تكون وجهة هذه الرحلات صوب الشرق؛ وقد زخرت بمخيلها الاستشراقي، في محاولة أن تصنع - من خلالها - ملمحاً استقطابياً احتوائياً، يغرّد حول

الثنائية الثقافية (شرق/غرب)، التي ما فتئت تمثل أمامنا في كتابات (إدوارد سعيد) الاستشراقية، وقد تجاوز فيها المقاربات التقليدية التي ترى، في سردياتها، ممارسات خطيرة في استكشاف الشرق، تمهيدا للهيمنة عليه، حيث يوهم الآخر (الغربي) بنبل رسالته الإنسانية تجاه الآخر (الشرقي)، من خلال دراسة ثقافته، وحضارته، حيث تختزل هذه السرديات المغرضة مسافة الهيمنة، وتبلور أشكال الاحتواء الثقافي المرتبطة بكل ما هو انثروبولوجي، وثقافي، وجمالي صادر عن الآخر الغربي.

لقد ركّز (إدوارد سعيد) في دراسته لهذا المخيال الاستشراقي، على ما كان ينتجه الاستشراق من أفكار ودراسات حول الفنون واللغات والآداب، ورصد هذا الحراك الاستعماري المضمر، بكشف خلفيات المغرضة، القائمة على:

- تكريس الامتداد الامبريالي في الشرق (تاريخا وجغرافيا)، كأداة للتوسع والاستعمار؛
- تفعيل العلاقة التاريخية الكلاسيكية المشحونة، القائمة على التعصب الديني، والعنصرية العرقية، كصورة للمجابهة التاريخية؛
- تحديد طبيعة الآخر "الشرقي"؛ لتعميق معرفة الأنا "الغربي"، من باب حشد التعاطف التاريخي؛
- تصنيف (الآخر الشرقي) على سلّم "القيم"، كمسوّغ أخلاقي يبرّر عملية الاحتواء (الاستعمار)، ومقابلته بـ (الأنا الغربي)، بوصفه جنسا ساميا بالجلبة والورثة<sup>(7)</sup>.

ولعل من نتائج هذه القراءات التي اضطلع بها (إدوارد سعيد): فضح مآلات بورجوازية القرن (الثامن عشر)، وما عكسه التيار الرومنطقي من أزمات "روحية" برّزت تلك النزعات "الهروبية" نحو كلّ ما هو بدائي وطبيعي، والتي وجدت ضالتها في عالم الشرق الساحر، ثم مقابلتها بمادية القرن (التاسع عشر)، بعدما كشفت عن عمق فراغها الروحي، واضمحلال قيمها، وتصدّع أخلاقها، حين سعت - عبر تياراتها الأدبية المادية - إلى اصطناع منافذ تشبع اغترابها "النفسي". ولأجل إخفاء هذا الإخفاق القيمي، ومحاولة إثبات فوقيته الزائفة، وتساميه الأرعن، يوهم العالم الغربي نفسه بمسؤولياته التاريخية تجاه العالم غير المتحضّر، كمبرّر لتسويق مشروعه الاستقطابي، ديدن كلّ ثقافة فوقية تحاول فرض أنموذجها الاحتوائي على ثقافة الأدنى منها، وشرعنة أحقية الوصاية عليه، حتى إذا ما أخفقت في ذلك، عمدت إلى استراتيجية القوة والعنف<sup>(8)</sup>.

وربما توجّهت بعض كتابات "الرحلة العربية" توجّها مقابلا، حين رفعت عقيرتها الاستغرابية، محاكاة لفكرة الاستشراق، وهي تتّجه صوب الغرب بعدما ألّفت (الشرقنة) الكلاسيكية على نمط الرحلات التبعية (الرحلة إلى الحجاز) أو الرحلات العلمية (الرحلة نحو حواضر الثقافة الإسلامية كمصر والشام والعراق)، وبشكل أقل، الرحلات السياحية، على نمط (مغامرات ابن بطوطة). أما التوجّه صوب الغرب، فإنّه قليل في تراثنا العربي

الإسلامي، إذا ما استثنينا الرحلات السفارية التي تقتضيها علاقات الدول - فيما بينها - كعلاقات ممالك الإسلام الشرقية مع دول الغرب.

وتبقى رحلة أهل الشرق إلى جهة الغرب عصيةً حتى أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، لا تتحقق فيه (الغزبة) إلا عبر الفكر الرمزي الأسطوري، مثل ما تعكسه صورة الغرب في الثقافة الفرعونية؛ حيث إنّ للغرب - في الثقافة المصرية القديمة - تمثيلات رمزية للعالم الآخر (عالم ما بعد الموت)؛ فتتحقق هذه الرحلة العكسية من الشرق إلى الغرب، بوصفها وجهة مدافن الموتى، ومستقرّ عالمهم الآخر، حيث يؤصلها جمال الغيطاني بقوله: "الغرب موضع رحيل الشمس.. الحدّ الفاصل بين النهار والليل.. بين النور والعمّة.. بين الحياة والموت. لهذا، كانت المعابد الجنائزية في الزمن المصري القديم كلّها في الغرب"<sup>9</sup>. وقد يكون للمخيال الأدبي جانب من هذا الاستحضار لصورة الغرب.

## 5. موازنة بين مدونتي نجيب محفوظ، وجمال الغيطاني:

### 1.5. مدونة (رواية رحلة ابن فطومة):

تقوم "رحلة ابن فطومة"<sup>10</sup>، على شخصية البطل (قنديل)، ذي النشأة الإسلامية العصرية، وصراع الخير والشر الذي خاضه دون أن يوفّق في المعاشية والتكيف، أو الصمود والتصدي. ومن هنا، تمثّل فكرة الرحلة، بحثاً عن بلاد أخرى، ومجتمعاً آخر، يجد فيها البطل خلاصه الروحي، واستقراره النفسي، ولعلّه يحقّق - من خلاله - قيمه المثالية: قيم العدالة، وأخلاق المدينة الفاضلة، دون أن يكون دافع الرحلة الحقيقي هروباً من الواقع، أو خلاصاً من الماضي؛ ذلك أنّ البطل قد حدّد - في حركته الانتقالية - مقاصده من هذه الرحلة، حاصراً إياها في: محاولة استكشاف عناصر القوة في البلاد التي قصدها، واستجلاب ما يمكن استجلابه من حلول علاجية لمشكلات البلاد التي جاء منها (ديار الإسلام).

لقد حدّد كاتب الرحلة (نجيب محفوظ) الفضاء المكاني الذي يتحرّك فيه بطل الرحلة (قنديل)، وهو فضاء متسلسل، يتوزع على أحياز مكانية دقيقة البناء، عميقة القيم، حيث ربّتها اعتماداً على تنوّع النظام السياسي والإيديولوجي، وتنوع القيم الفكرية والاجتماعية والثقافية، مراعيًا - في ترتيبه - أبعاد التطوّر والتقدّم الذي يمايزها:

- كان منطلق الرحلة (دار الإسلام) مسقط رأس البطل، حيث تشيّع مظاهر التخلف والانحطاط، ويسود الظلم والاستبداد؛

- ثم كان التحرك الأول إلى (دار المشرق)، التي تمثل العالم الوثني البدائي، وقصد بها القارة الإفريقية؛

- تليها (دار الحلبه)، التي تمثل البلدان الرأسمالية؛

- وتأتي (دار الأمان)، التي تمثلها البلدان الاشتراكية؛
- ثم (دار الغروب)، التي تمثل "المطهر"، وهي همزة وصل، ومنطقة عبور لا بدّ منها للوصول إلى (دار الجبل)
- ينتهي الرحالة إلى (دار الجبل)، التي تمثل غاية الإنسان وحلمه في تجاوز النقائص التي وجدا في البلاد الأخرى، للوصول إلى غايته النهائية، وحيث الكمال، والسعادة الأبدية.

## 2.5. مدونة (رواية هاتف المغيب):

تقوم رواية (هاتف المغيب) على التسجيل الذي يعتمد النقل والمطالعة، وهي تقابل - بذلك - التسجيل الواقعي والملاحظة المعاينة التي قامت عليه رواية (رحلة ابن فطومة)، حيث عمد جمال الغيطاني إلى طريقة مخيالية دقيقة في "استشارة مكامن الوعي الجمعي.. فهو ينقل لنا تجارب في القراءة أكثر مما يمثل معاشات في الحياة"<sup>11</sup>، دون أن يقلّد أستاذه (نجيب محفوظ) أو يقلّد أرباب هذا الفن السردى، أو يتشابه مع أسلوب كتابي آخر، بل نراه يقوم بدمج هذا الجنس (الرحلي) في الجنس (الروائي)، وفق رؤيته السردية الخاصة، وتقنية تفاعل أجناسي، تبدو واضحة المعالم، وتقديم طريقة متميزة في الكتابة التجريبية المتعالية على نمطية المضامين الكلاسيكية، دون أن تنكر أو تبرأ من شكلها التراثي.

تنطلق رحلة "أحمد بن عبد الله"؛ في رواية "هاتف المغيب"<sup>12</sup>، من القاهرة، عبر الصحراء، مروراً بالواحة، والفسطاط، إلى منطقة الإقليم، متوجهة إلى بلاد الغرب (المغرب)، حيث يخوض البطل رحلة استكشافية؛ تقمّصت فكرة "عبور الذات بحر الحياة" في التراث المصري الفرعوني، ومواجهة الصعوبات والمشكلات التي تقف في وجه اكتمالها، أو اعتراض محاولات الفهم الكلي للوجود، ليتحوّل الرحالة إلى ذات منفتحة تتحرّك في فضاء الحرية بعد أن كانت ذاتاً منغلقة رهينة إكراهات الواقع، وإملاءات الضرورة.

تعرف بطل الرحلة "أحمد بن عبد الله" إلى الشخصية الورقية "جمال بن عبد الله"، ليطمّويع صوت الكاتب (جمال الغيطاني) خارج النص، وداخله؛ بوصفه السارد والراوي والشخصية. ومن خلالها تتكشف حقيقة الكاتب ورؤيته السردية في فهم حقيقة العلاقة الوجودية بين المشرق والمغرب الإسلاميين، وإدراك طبيعة العوائق الموضوعية المفتعلة بين المشرق والمغرب، مقتنعاً أنّ الوحدة هي الحلّ المثالي، والضروري لكلّ ما يعاينيه الوطن العربي من تفكّك وتشردم، ومن تحلّف وانحطاط؛ على الرغم ممّا يزخر به الوطن العربي من مقومات الوحدة والتكامل التي حباها التاريخ، ومنحتها الجغرافيا. وكانت الرسالة التي يريد السارد تمريره، هي: كشف هذه الحقيقة الوجودية، وسماع هذا (الهاتف)، الذي يسمع جهة الغرب، مطالبا برفع الغفلة ونبذ الخلاف، واستشعار فضيلة هذه المواءمة المنطلقة من احترام الماضي، والنهوض بالحاضر، واستشراف خير ما في المستقبل من دون إقصاء.

## 6. طبيعة الحوارية بين المدونتين:

## 1.6 نجيب محفوظ، والحوار الحضاري (شرق - غرب):

حين نلامس منطلقات "رحلة ابن فطومة"، لنجيب محفوظ، في أهدافها المعلنة، نتحسّس هدفا محوريا منبثقا من فكرة "معرفة الذات من خلال معرفة الآخر". غير أن هدفا مضمرا سوف يتفياً ظلال هذا الهدف المعلن، متمثلاً في محاولة القبض على أسباب قوة هذا الآخر (الغربي)، وصور الإفادة منها. وباعتبار المسار الرحلي الذي سلك السارد في رواية "رحلة بن فطومة"، تتكشف صورة الفكرة التي ألقاها السارد، على فكر شخصيته الرحلية (قنديل)، ومدى مرونة فكره في تقبل فكر الآخر، عبر استراتيجية "محاورة" ترقى إلى "الحوارية"، بناها السارد على فكرة التسامح المطلق، المتجاوز إكراهات الدين والجنس والوطن عند الطرفين، حيث تحاور الذات الآخر - فكرياً - قصد تحقيق الأهداف والوصول إلى الغايات، وهي - في عومها - تقوم على حصر الأدواء قصد الوصول إلى الدواء، والبحث عن حلول شافية للأسقام السياسية والاجتماعية والفكرية، التي تعصف بالوطن، وتحديد طرائق الإفادة من منجزات الآخر (الغربي)، شرط ألا تتعارض أو تتناقض مع المعتقدات الدينية والفكرية، والتماسها في أبعادها الإنسانية.

ولما كانت هذه الرحلة - في بعدها الحضاري - وسيلة للتعرف إلى (الآخر)، فقد تحدّد خطاب (الآخر)، كتصوّر فكري لمفهوم (المعرفة)، حيث يغدو التعرف إلى (الآخر الغربي)، والتعرف إلى مرجعياته الثقافية، وحدودها المعرفية والجمالية تعرفاً إلى (الذات العربية)، بل قراءة تقويمية لكيثونتها، ومراجعة تصحيحية لمرجعياتها<sup>13</sup>.

ويبدو أنّ نجيب محفوظ، في مدونته الرحلية، قد حرص على إبراز طبيعة هذا (الآخر)، وطبيعة التصوّر الفكري الناضج لسلوكه الحضاري، عبر الوقوف على آليات الحكم، ونمط الحياة، وطبيعة السلوك الديني الذي يوطرها، مما يكشف - لدى السارد - عمق الهوة بين مقومات (دار الإسلام)، وهي الوطن الذي أقبل منه، وديار (الآخر) التي قصده: الدار الوثنية، والاشتراكية، والرأسمالية، مدركاً عمق المفارقة التي تعترض إمكانات التوافق بينهما.

ولم يكن الانبهار، الذي أبداه السارد بديار الغرب، ليمنع ما أضمره من حقائق تجاه هذا (الآخر)، حين آمن بهشاشة نظمها السياسية؛ ذلك أنّ (دار الأمان)، لا تستطيع - بطابعها الشيوعي (المشاعي) - تحقيق العدالة الاجتماعية، من خلال الحدّ من الحريات الفردية، كما أنّ (دار الحلبة)، لا تستطيع - بطابعها الرأسمالي - إيجاد حلول ناجعة لأمر المعاش، وإنّ حققت هامشا عريضا من الحريات؛ إذ - كلاهما - يبدو عاجزا عن إيجاد نظام شامل يحقق العدالة السياسية والاجتماعية، وليس بإمكان التصورات الدينية - في اعتقاد نجيب محفوظ - أن تحقق العدل في وطنه (دار الإسلام)، وكأنّ العدل مطلب (يوتوبي) عزيز المنال في ظلّ غياب المشاركة الفعّالة للدين في تنظيم شؤون الحياة - كما صرّح بذلك بطل الرحلة "قنديل"، في حوار مع شيخه "مغاغة الجبيلي" - حيث ظلّ حبس المساجد، ونشاط المسجدين<sup>14</sup>.

## 2.6 جمال الغيطاني، والحوار الثقافي (مشرق - مغرب):

إنّ من يقرأ رواية جمال الغيطاني "هاتف المغيّب"، على هامش رواية نجيب محفوظ "رحلة ابن فطومة"، يلمس ذلك الحبل "السري" الذي غدّث - من خلاله - رواية "رحلة ابن فطومة" رواية "هاتف المغيّب"، وكأنّ رحلة جمال الغيطاني هي رحلة صغرى "داخلية"، لرحلة نجيب محفوظ، الرحلة الكبرى "الخارجية"<sup>15</sup>.

وحين نضع المدونتين، من حيث التموقع الانثروبولوجي - جغرافيا وثقافيا - نذهب إلى أنّ كليهما يتوجّه وجهة غربية، حيث (الغرب الأوروبي) مع نجيب محفوظ، و(الغرب الإسلامي)، مع جمال الغيطاني. ومن هنا، يتبدى عنصر طريف يجمع بين الأستاذ والتلميذ؛ هو أنّهما - من حيث مصريتهما، وبحكم الواقع التاريخي الممتدّ في التاريخ وجغرافيا والثقافة - لا يختلفان في نظرتهما العامة للغرب، سواء أكان هذا الغرب أوروبا، أم إسلاميا.

وإذا كان قبول رواية "رحلة ابن فطومة" من جهة أنّها تتوجّه - حضاريا وثقافيا - إلى العالم الغربي، والآخر الأوروبي، بوصف الغرب أصحاب النفوذ الحضاري، والطول المادي والعلمي - كما هو مقررّ في الكتابات العربية - فإنّ قبول الدائقة العربية لرواية "هاتف المغيّب"، قد لا تستساغ - ضرورة -؛ كونها عسيرة الهضم؛ إذ تتناول الغرب الإسلامي في بنيتها العميقة، وهي - بذلك - تذكر بتلك الحساسية التاريخية، التي تبدو طبيعية، في دائرة الصراع (العربي - العربي)، بين المشاركة وبين أهل الأندلس والمغرب زمن الدويلات الإسلامية، لكنّها قد تبدو - لاحقا - غير طبيعية، حين تكون هذه العلاقات التاريخية الثقافية هدفا للاستعمار الأوروبي، وغرضا في زعزعة القطبية التاريخية بينهما، والتشكيك في نصاعة انتماء المغرب للمشرق، الذي ما زال الغرب يستغلّ آثاره الخطيرة، ويدرجه ضمن أجنداته الاحتوائية، على الرغم من أنّ العطاء الحضاري والثقافي للمغاربة لم يكن مقطوعا ولا ممنوعا عن المشاركة، بل إنّ دولة مغربية (وهي الدولة العبيدية)، قد شدّت رحالها من المغرب صوب المشرق، لتأسس دولتها (الفاطمية)، وتطوي خيمة (الفسطاط)؛ لتؤسس أركان العاصمة (القاهرة)، وتوطّد أركان قطب الجوامع (الجامع الأزهر الشريف) في مصر، وهذا الذي سعى صوت رواية الغيطاني، إلى إسماعه، والتنبيه إلى الخطر المخبوء تحته.

ومن هنا، فقد نتأول الصوت السردى العميق، المنبعث من أعماق رواية الغيطاني، وهو: أن رواية "هاتف المغيّب" هي مقلوب رواية "رحلة ابن فطومة"؛ وأنّ إعادة فتح العلاقات (المشرقية / المغربية) القديمة ليس إثارة للحساسية الإيديولوجية التي اصطنعها الاستعمار الحديث بين المشاركة والمغاربة، بقدر ما هو إحياء غير معلن لفكرة الدور الثقافي (المغربي)، وصورة المغرب الإسلامي الروحي "الصوفي"، الذي أثر أئمة تأثير في الفكر الديني والصوفي والفلسفي عند المشاركة.

ونكاد نجزم أنّ رحلة الغيطاني، من حيث بنيتها الروائية الرخلية، قد كانت عميقة الوعي بهذه العلاقة الثقافية بين المشرق والمغرب، وليست فكرة رحلة "أحمد بن عبد الله"، بطل الرواية، من القاهرة، عبر الصحراء، إلى بلاد الغرب (المغرب)، إلا محاولة حريصة على استكشاف بعض مكونات الجسد العربي، الذي كاد يفقده المشرق،

ويفقد - بفقده - هويته الثقافية المتأصلة، وامتداده الحضاري الراسخ، زمن الوجود الإسلامي بالاندلس، وانكفائه - زمن الصراع المسيحي الصليبي - إلى الشمال الإفريقي، وارتداده جهة المشرق في الزمن الفاطمي<sup>16</sup>.  
غير أنّ الممعن في بنية (رحلة ابن فطومة) الفكرية، يصل إلى أنّها تأسست على موضوع (المعرفة)، مما يسمح بوسم هذه الرواية/ الرحلة رحلةً (ذهنية) بامتياز، وتالياً، التعامل معها وفق الطرح الفلسفي، وما يقتضيه من تعامل تأملي عوض التعامل الفني الجمالي.

وإلى جانب هذا التوجّه المعرفي (التعلمي) في رواية (رحلة ابن فطومة)، نلمس توجهها وطنياً (إصلاحياً) ثاويًا فيها، يؤكده حسن الانتماء الوطني الذي كشف عنه السارد، والذي يقضي أن يضطلع (البطل/ الرحالة) بأمانة الوفاء إلى الوطن، وذلك بالعودة إلى أحضانه، وإعادة إنتاج المعرفة التي امتلك أسرارها في أثناء رحلته.  
وأما جمال الغيطاني، فقد كتب رحلته على طريقة الرحلة "الواقعية السحرية"، لكن هذه السحرية لا تكمن في: إجادة وصف المكان أو تناول مظاهر الاختلاف في القيم والتقاليد، والعادات والسلوكيات بين المجتمعات المختلفة، بل تكمن في منطق الطقس اللغوي الذي أسس لتمفصلات هذه السحرية الواقعية، باستغلال طاقات اللغة، وسميئة أبعادها الدلالية، غير أنّها لا تكاد يخلو من عفوية ناصعة الشفافية، أكّدت عمق تجربة الكتّابية عند الغيطاني، وجنس الكتابة التي حرص على تمثله السارد، حين تقمّص جنس الرحلة، بحيث لا يستطيع المتلقي (القارئ) أن يكتفي بتلقيها في إطارها الأجناسي، دون أن يجد المسوغ الجمالي المقنع، بضرورة التجاوز القرائي، وممارسة ضرباً من الشطح المخيالي (الفوناستيكي)، يحمله إلى فضاءات اتّسعت أفانيمها العجيبة، وتنوّعت أحداثها الغريبة.

## 7. على سبيل الخاتمة:

لقد أوجدت هذه القراءة (النصية) لأبعاد المدونتين، قراءة (تناصية) موازية؛ مثلت فيها رواية "رحلة ابن فطومة" حالة خاصة من حالات استلهاهم تراث الرحلات، وتراث الرحلة البطوطية تحديداً. ولعل الإشارة الدلالية، التي يكتسيها مناص العنوان في نص نجيب محفوظ، قد تكرّس تلك التناصية الاستباقية التي تحملها ذاكرة المتلقي العربي للملفوظ (البطوطي)، مما يعضد ثمرة الموازنة - على مستوى الشكل الفني، وعلى مستوى الرؤية النصية - بين "رحلة ابن بطوطة"، ورواية "رحلة ابن فطومة".

وقد تكون من مقصدية المؤلف، في اختيار المناس الأجناسي "البطوطي"، ما تحمله رحلة ابن بطوطة من شيوع وذبوع في الآداب العالمية، مما يجعل هذا التشاكل المناسي، بما يحمل من إيهام تناصي، مكتسباً لدالتين:

- أولاًهما: أن "نجيب محفوظ" تمثّلها لتكون الشكل الفني لروايته، حيث يتسنى التعبير عن أفكاره الفلسفية، ذات الأبعاد الإنسانية، عبر هذه المساحة الزمنية، المكانية الممتدة.

- ثانيهما: أن "نجيب محفوظ" ربما تعمّد كتابة رحلته على ضوء رحلة ابن بطوطة، كخطوة في طريق تأصيل شكل فني عربي لـ (رواية رُحلية) على غرار (الرواية السير - ذاتية)، في رحلة بحثه الدؤوب عن شكل سردي يحمل الوجاهة والحداثة. وعلى اعتبار هاتين الإشارتين، أمكن الإقرار بالتناسية المقصودة - على مستوى الشكل على الأقل - في بناء النص عند نجيب محفوظ.

أما ما ارتبط بمدوّنة الغيطاني، فقد تقصّد الكاتب التمرّد على نمط الكتابات السردية، بهدف خلق كتابة تجريبية جديدة متحرّرة من أسر النموذج السردى الغربي، متجاوزا بها فكرة الصفاء الأجناسي، من خلال الدخول في شبه تفاعل وتصاهر مع الأجناس الأخرى، ابتداء بالأجناس القريبة من الجنس الأدبي، كالتاريخ، وأدب الرحلة.. إلى أجناس لم يؤلف دمجها في تاريخ السرديات، كالجغرافيا، والخطط، وفن العمارة..؛ سعيا إلى ضمان أسباب تداولها، وتبرير مسوغاتها الثقافية.

لقد شكّل فضاء رواية "هاتف المغيب"، عند جمال الغيطاني، الوجه الآخر لصورة الزمن القائم على بعد المكان؛ ذلك أنّه لا يمكن استحضار اللحظة الزمنية من حياة الإنسان، إلّا وهي مرتبطة بوعائها المكاني، ومن ثمّ، تغدو هذه الزمكانية (الكرونوتوب باصطلاح باختين) مقارنة انفعالية تفاعلية، تجمع ما هو "استذكاري" بما هو "استشراقي"؛ اعتماد على حاستي التخيل والاستيهام.

## 8. الهوامش:

\* الأنثوغرافيا: هو الدراسة الوصفية التحليلية لأسلوب حياة مجتمع من المجتمعات، من خلال: التقاليد والعادات والقيم، والفنون والمأثورات الشعبية، والوسائل المادية لدى جماعة معيّنة أو مجتمع معيّن، خلال فترة زمنية محدّدة.

\*\* والأنثروبولوجيا: التأريخ للإنسان من خلال آثاره المادية (الحضارية)، والمعنوية (الثقافية).

<sup>1</sup> - نجوى عمامي: اليوميات الخاصة في الأدب العربي الحديث، دار خريّف للنشر، تونس، ط.1، 2024، ص. 57.

<sup>2</sup> - قرّر السلطان أبو عنان - مؤسس الدولة المرينية - استنساخ رحلة ابن بطوطة؛ بأن كلّف كاتبه في ديوان الإنشاء، مُحمّد بن أحمد بن مجزي بذلك. وقد أشار هذا الأخير إلى المهمة المكلف بها في مقدمة الرحلة، فقال: "... وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم ... بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله، من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا، ولنيل مقاصده مكتملا، متوخيا تنقيح الكلام وتحذيه، معتمدا إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع ... فلم أخلّ بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما قيده من الحكايات والأخبار، ... وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقطة، ليكون أبلغ في التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء الأعجمية؛ كي لا تلتبس بعجمتها على الناس ... وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام...". ينظر: مقدمة رحلة ابن بطوطة، دراسة: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996، 152/1.

\*\*\* الأنثولوجيا: علم يُعنى بتقسيم الشعوب، وتصنيفها على قاعدة الصفات الحضارية والعنصرية التي تميّزها، إلى جانب رصد حركة ترحال الشعوب من بقعة جغرافية معيّنة إلى بقعة أخرى، واستقراء مظاهر انتشار الصفات الحضارية التي يسببها هذا الترحال، ومع هذا العلم ازدهر مصطلح (الإنثية) عند الكلام عن الأقليات الاجتماعية. ينظر: حسين مُحمّد فهمي: أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد: 138، يونيو 1989، ص: 43، 44.

- <sup>3</sup> - مصطلح (كرونوتوب) من المصطلحات الفني التي استعاره (ميخائيل باختين) من نظرية "أنشتاين"، حيث تعتبر الزمان بعدا رابعا للمكان. والكرونوتوب، أو (الزمان) عند باختين - كما تم نحتة في العربية - هو امتزاج صورة المكان في حركية الزمان، وعلى أساس هذا المزج، تدرس العلاقات النصية؛ بوصفها أنساقا تنتمي إلى زمن (اجتماعي - تاريخي)؛ باعتبار المكان - عند باختين - لا ينفصل عن زمانه؛ فهو دلالة نسقية في (الإيديولوجي - التاريخي). يراجع كتاب د. يحيى العيد: في مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية، دار الفارابي، بيروت، ط.1، 2005، ص: 63
- <sup>4</sup> - ينظر: عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، ط.1، الدار البيضاء، 1996، ص: 10-14.
- <sup>5</sup> - ينظر: عمر عيلان: مستويات السرد عند جبرار جنيث، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد: 427 دمشق، نوفمبر 2006، ص. 94.
- <sup>6</sup> - ينظر: فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط.2، 2002، ص. 157 - 529.
- <sup>7</sup> - ينظر: إدوارد سعيد: الاستشراق (المعرفة. السلطة. الإنشاء)، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.7 بيروت، 2005، ص: 14-143.
- <sup>8</sup> - للتوسع في هذا المعنى، ينظر: وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل (قراءة في مشروع أمبرتو إيكو)، الدار العربية للعلوم "ناشرون"، ط.1، بيروت، 2008، ص: 233، وما بعدها.
- <sup>9</sup> - جمال الغيطاني: نزول النقطة (الاستمرارية والتغيير في مصر)، دار أخبار اليوم، القاهرة، عدد: 524، ماي: 2009، ص: 57.
- <sup>10</sup> - نجيب محفوظ: رحلة ابن فطومة، دار الشروق، ط.3، القاهرة، 2008.
- <sup>11</sup> - صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، مركز الإنماء الحضاري، حلب (سوريا)، 2009، ص: 112، 113.
- <sup>12</sup> - جمال الغيطاني: هاتف المغيب، دار الشروق، ط.2، بيروت، 2010.
- <sup>13</sup> - عبد الله حامدي: الرواية العربية والتراث (قراءة في خصوصية الكتابة)، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة (المغرب)، 2003، ص: 129، 130.
- <sup>14</sup> - المرجع نفسه، ص: 130.
- <sup>15</sup> - أبو بكر مرزوق: التناص والنص التراثي في الرواية الغيطانية، المرجع السابق، ص. 236 - 238.
- <sup>16</sup> - المرجع نفسه، ص 237

## 9. قائمة المراجع:

- (1) أبو عبد الله الطنجي (ابن بطوطة): رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996، تنظر دراسة عبد الهادي التازي للكتاب، 1/ 152.
- (2) عبد الله حامدي: الرواية العربية والتراث (قراءة في خصوصية الكتابة)، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة (المغرب)، 2003.
- (3) إدوارد سعيد: الاستشراق (المعرفة. السلطة. الإنشاء)، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.7 بيروت، 2005.
- (4) صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، مركز الإنماء الحضاري، حلب (سوريا)، 2009.
- (5) وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل (قراءة في مشروع أمبرتو إيكو)، الدار العربية للعلوم "ناشرون"، ط.1، بيروت، 2008.

- (6) نجوى عمامي: اليوميات الخاصة في الأدب العربي الحديث، دار خريّف للنشر، تونس، ط.1، 2024، ص. 57.
- (7) يمنى العيد: مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية، دار الفارابي، بيروت، ط.1، 2005، ص. 63.
- (8) عمر عيلان: مستويات السرد عند جيران جنيت، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد: 427 دمشق، نوفمبر 2006.
- (9) جمال الغيطاني: نزول النقطة (الاستمرارية والتغيير في مصر)، دار أخبار اليوم، القاهرة، عدد: 524، ماي: 2009.
- (10) جمال الغيطاني: هاتف المغيّب، دار الشروق، ط.2 بيروت، 2010.
- (11) حسين مُجّد فهميم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد: 138، يونيو 1989.
- (12) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط.2، 2002.
- (13) نجيب محفوظ: رحلة ابن فطومة، دار الشروق، ط.3، القاهرة، 2008.
- (14) أبو بكر مرزوق: التناس والنص التراثي في الرواية الغيطانية (أطروحة دكتوراه)، جامعة الجزائر (2) أبو القاسم سعد الله، 2016.
- (15) عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة، ط.1، الدار البيضاء، 1996.